قراءة في كتاب
الرُّؤْيَة الكَوْنيَّة الحَضَاريَّة القُرْآنيَّة
المُنْطَلَق الأَسَاس لِلإِصْلاح الإِنْسَانِيّ*
تأليف: عبد الحميد أحمد أبو سُلَيْمان

يوسف عبد الله الجوارنة**

تعيش الإنسانيَّة منذ أُفولِ نجم الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة إلى اليوم، حيرةً واضطرابًا في جوانب الحياة المختلفة، السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة وغيرها؛ ذلك أنّ المنعطف الكبير الذي جاء به الإسلام، أَنْقذ البشريّة من سلطة الإنسان، إلى فضاءاتٍ واسعةٍ من الحياة الحرّة الكريمة التي غدا فيها الإنسان شاهداً تَحَرّر من أغلال الرّقّ وقيود التبعية المَقيتة، وانفتح عقلُه على آفاقٍ من التفكير رحيبةٍ.

من هنا، ما انفكّ المفكّرون والمصلحون يحاولون -بالرغم من السّيطرة الحتميّة للماديّة الطينيّة في حياة البشر فكراً وسلوكاً- الخلوصَ إلى معادلة تُشْعر الإنسان بإنسانيته بصرف النّظر عن فَقْره وغِناه، وعِلْمه وجَهْله، وحَسَبه ونسبه؛ لأنّ الحريّة التي يجب أنْ يتمتع بها كلّ إنسان، مَطلبٌ حَضَاريٌّ عَزَّ وجوده تحت السّيطرة الماديّة وعُنْفوانِها.

يحاول المؤلِّف في كتابه "الرّؤية الكونيَّة الحضاريَّة القرآنيَّة"، أنْ يُسهم في إعادة بناء العقل المسلم وتشكيله، من خلال الاهتمام بقضيّة تجديد منهجيّة الفكر الإسلامي والبحث فيه في مجال الدّراسات الاجتماعيّة، الذي يعتريه بعض الانفصال بل والانفصام مع الدّراسات الإسلاميّة، لِتَحقيقِ "فِكْر إسلاميّ واقعيّ فَعَّال في مختلف

---

* أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. **الرُّؤْيَة الكَوْنيَّة الحَضَاريَّة القُرْآنيَّة: المُنْطَلَق الأَسَاس للإِصْلاح الإِنْسانيّ**، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السّلام للطباعة والنّشر والتوزيع والترجمة، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

** أستاذ النحو المساعد بجامعة الزّرقاء الأردنيّة الخاصّة. البريد الإلكتروني: yjawarneh@yahoo.com. تم تسلّم القراءة بتاريخ ٢١/٥/٢٠١٠م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٢/٨/٢٠١٠م.

المجالات الحياتيّة،"[١] يَحْدوه إلى ذلك يقين بأنّ منهج الفكر الإسلاميّ أصابه خَلَلٌ جَعَله في قلب أزمة الأمّة، داعيًا في الوقت نفسه للخروج من هذه الوَهْدَة، والبدء بالإصلاح لمعالجة أزمة الفكر الإسلاميّ وما أصابه من تَشَوّهاتٍ وآفاتٍ، للنهوض من كَبْوة الأمّة وانْحِطاطها إلى عِزّتها ورِفْعتها.

لذلك، كانت جهود المؤلّف منصبّة في هذا الاتّجاه، لتَجْسيد رؤيةٍ تجديدية حول إصلاحِ الفكر والوجدان، انطلاقاً من اعتبار الفطرة الإنسانيّة السّويّة والسّنن الكونية واقعًا زمانيًّا ومكانيًّا. وقد كان للمؤلف أثر كبير في تطوير بعض المقرّرات الدراسيّة في الجامعة الإسلامية العالمي بِماليزيا حين كان مديرها، لربط العلوم والدّراسات الاجتماعيّة خاصّة بالدّراسات الإسلاميّة والفكر الإسلاميّ، رغبةً منه في إعداد جيل جديد يكون قادرًا على تنشئة الأجيال الصاعدة من أبناء الأمة، وقد تَعافَت من كلٍّ المفاهيم المغلوطة والسّلوكيات التربويّة المشبوهة.

إنّ الأمّة الإسلاميّة بِما تَمْتلكه اليوم من مقوّمات الاستخلاف التي كانت بها يومًا في طليعة الأمم الأخرى، يومَ كان لها غايات حقيقيّة في تَحْقيق رسالتها في الرّيادة الإنسانيّة الحضاريّة الإصلاحيّة، لَم تَعُد الأمّةَ المبادرة إلى النّهوض والخروج من دائرة التّهميش والسّلبيَّة، مع أَنّها كانت مهيّأة للخلوص من هذا التيه واللّحاق بركب الحضارة والمدنيّة كما كانت، أكثر من أُمَمٍ أخرى نَهَضت من كَبَواتِها، ونافَسَت ولحقت بركب التقدم والحضارة، بينما الأمة الإسلامية، لا تزال تعاني التخلف، ولن تخرج من وَهْدَتِها "إذا لم تكن هناك رؤية كونيّة حضاريّة، تُعْطي الإنسان المسلم معنًى حقيقيًّا إيجابيًّا للوجود، وغايةً وهدفًا ودافعًا لهذا الوجود."[٢]

من هنا، فإنّ المؤلّف جاهَدَ في هذا الكتاب التنويريّ أنْ يُجَسّد هذه الإشكاليّة الكبرى في حياة الشّعوب الإسلاميّة، التي تَمْلك أدواتِ التغيير ووسائلَ الإصلاح، دون أنْ يكون لها أثرٌ ظاهرٌ في الحركة الكونيّة والإعمار الكونيّ، رغبةً منه في أنْ تَسْتعيد

[١] أبو سليمان. **الرُّؤيَة الكَوْنيَّة الحَضَاريَّة القُرْآنيَّة– المُنْطَلَق الأَسَاس للإِصْلاح الإِنْسانِيّ**، مرجع سابق، ص١٢.
[٢] المرجع السابق، ص١٩.

الأمّة دوافعَها وغاياتِها وحِرَاكَها الإسلاميّ الإعماريّ الحضاريّ، لتكون قادرة –من خلال رسالتها الحضاريّة– على قيادة الحضارة الإنسانيّة وريادتِها؛ لأنّ في ذلك إنقاذًا لها وللأمم الأخرى من الحيرة والاضطراب اللذين يعاني منهما الإنسان في الشّرق والغرب على السواء.

لم يُقِم المؤلّف كتابه على فصول تنتظم مادّة الكتاب، بل أقامه على عنوانات كبرى هي في المحصّلة فصول الكتاب ومادّته، مَهّد لها بِمُقدّمة جليلةٍ كَشَفَ فيها عن الغاية من الكتاب، الذي هو مِهَادٌ نظريّ وعلاج تطبيقيّ لكل بحوثه ودراساته، التي خَرَجَت بشكلٍ أو بآخَرَ من عباءة هذه الرّؤية الكونيّة، التي يسعى المؤلّف إلى الوقوف عليها في هذا الكتاب النفيس، في التأطير والتأصيل لإشكاليّةٍ كبرى في حياة الأمّة الإسلاميّة، يومَ تَخَلّفت وأَبْطأت في القيام بدورها الحضاريّ الكبير في الإصلاح والإعمار.

لا ينفكّ المؤلّف يدندن في كتابه، بل وفي كلّ أعماله، حول قضيّة الإعمار والإصلاح الكونيّ من خلال رؤية قرآنيّة، تتناغم مع منظومة في الحضارة ومنهجيّة في التفكير؛ فكلما كانت المنهجيّة على طريقة الرّؤية الكونيّة أكثر وضوحًا وإيجابيّةً وتعبّر عن جوهر المنظومة الحضاريّة ورؤيتها، كانت مُنْتجةً فعّالة،[٣] لأنّ الإشكاليّة أنْ يكون ثَمّة غموضٌ وتناقض بين المنظومات ورؤاها الكونيّة وبين منهجيّات التفكير، يُؤَدّي إلى التعارض بل التصادم بين منطلقاتها النظرية والممارسة العمليّة في حياة الأمم والشّعوب، ومن ثمّ لا تكون المنهجيّات فَعّالة إذا لم تُبْنَ على رُؤى كونيّة حضاريّة.

والوعيُ بالرّؤية الكونيّة القرآنيّة الحضاريّة، والالتفافُ حولها، وإعادةُ النظر فيها مِن أُولى الأولويات؛ لأنّها بِمَنزلة الجذور التي تنطلق عنها جُمْلة المبادئ والمفاهيم والقيم التي تُجَسّدها منهجيّات التفكير. وبغير ذلك يكون من الصعب "كَشْف ما يكون قد لحق بمنهجيّة التفكير من سوء الفهم والتشوّهات."[٤] وأَمْرٌ كهذا يفتقد الوَعْيٍ ببِنْيَة الرّؤية الكونيّة وتَتشَوّه فيه مناهج التفكير، ويَجْعل جُمْلة المفاهيم والمبادئ والقيم

[٣] المرجع السابق، ص٢٣.

[٤] المرجع السابق، ص٢٤.

المنبثقة عنها جامدةً وغير فاعلة؛ لأنّ هذه الرّؤية تُمثّل -على حدّ تعبير المؤلف- "القوّة الدّافعة العَقَديّة التي تُحَدّد طبيعة القوّة الوجدانيّة المحرّكة للإنسان وللمجتمع،" وبها نتخلّص من أمراض السّلبية والاتّكاليّة ومن قُصُور الأَدَاء، ومن الفرديّة والتّمزّق والصّراع،[٥] لِتَصل الأمّة وقد استعادت عافيتَها إلى نور الهِدَاية، وعِزِّ العطاء، وقوّةِ الوَحْدة والعلم والإبداع.

وعليه، فإنّ الأمّة الإسلاميّة إذا لم تدرك أسباب انحسار مَدّها الحضاري، وضبابيّة رؤيتها الكونيّة وتشوّهاتِها، فلن تكون مؤهَّلة -كما كانت- لمهمّة الاستخلاف الذي جعل منها أمّةً مبدعة بَهَرت بأدائها الرائع العوالم المعاصرة لها، يوم كانت تستقي الأمّةُ مرجعيةَ رؤيتِها الكونيّة من القرآن الكريم، وتطبيقات الوحي الحقيقية في العهد النبوي وعهد صدر الخلفاء الراشدين. فكيف تَشوّهت هذه الرؤية الكونيّة القرآنيّة، فانحسر المسلمون ونشأ أبناؤهم بتكوين نفسيّ وجدانيّ مَعيب، وقَصّروا في النواحي العلميّة والمعرفيّة وعَجَزوا في المدّ العُمْرانيّ والحضاريّ؟!

يرى المؤلف أنّ البداية كانت مع غَلَبة القبائل العربية من الأعراب على قوّة الأمة العسكرية وحياتِها السياسية، بانهيار الخلافة الرّاشدة وقيام الملك الأمويّ العَضوض، والردَّة إلى المفاهيمَ العِرْقيّةِ الجاهليّةِ، فحلّت مكان الرؤية الكونية (النبوية-الصحابية) رؤيةٌ (أَعْرابيّة) "جُلُّ مصدرها خليطٌ أملته خاصّيَّة أَحْوال قبائل الأعراب."[٦] ثُمّ صاحَبَ ذلك اختلاطِ ثقافة الأمّة وإرْثها الحضاريّ بِموروث الحضارات السّالفة كالإغريقية، التي كان لها -فضلاً عن بعض جوانبها الإيجابيّة- آثارٌ سلبية كثيرة استجاب لها ثُلّة من أبناء الأمة، فانشغلوا بالجانب السلبي منها المتّصل بالفلسفة والمنطق، واستُنزف العقلُ المسلم في سفسطاتٍ عَقَديّة لاهوتيّة وَهْميّة؛ مما صَرَفه عن مهمّته الحضاريّة التسخيريّة الإبداعيّة الحياتيّة الإعماريّة، فانشغل العلماءُ بقضايا عقيمةٍ لا تتعلّق بشؤون الإنسان ولا نَفْع يُرْجى من ورائها، كقضايا خَلْق القرآن والقضاءِ

[٥] أبو سليمان، عبد الحميد. "الإصلاح التربويّ: العلاقة بين الرؤية الكونية والمنهجية المعرفية والأداء التربوي"، **مجلة إسلاميّة المعرفة**، ع٢٩، صيف١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص١٦٨.

[٦] أبو سليمان. الرُّؤْيَة الكَوْنيَّة الحَضَاريَّة القُرْآنيَّة- المُنْطَلَق الأَسَاس للإِصْلاح الإِنْسانيّ، مرجع سابق، ص٣٣.

والقَدَر وغيرها مِمّا يتّصل بعلوم الكلام والفلسفة. بينما جاء الإسلام لينقذ الإنسانيّة من براثن المادّة وسلطة البشر، ولِيُحدث نَقْلَة حضاريّة عالميّة بعيدًا عن الموروثات العِرْقيّة والأسطوريّة والمنطقيّة والإسرائيليّات والغنوصيّات الباطنية، التي تؤدي -كما يقول المؤلّف- إلى "رِدّة فكريّة وغَبَش عَقَديّ".

وقد أدى هذا الانحراف في المنهج إلى فَتْح الباب واسعًا للخلاف الدينيّ، الذي سَلَكَ مسالكَ منحرفةً "مَزَّقت وَحْدة الأمة، وعَدّدت سُبُلَها، وقَطّعتها إلى فِرَقٍ ومِزَقٍ، وإلى طوائف وشِيَعٍ لا تحتكم إلى العلم والنظر والتدبّر الشّموليّ العلميّ السّننيّ الموضوعي المنضبط؛"[٧] فاختلطت الحاجات الروحيّة بالماديّة، وصار الإنسان هَمَلاً على هامش الحياة الحقيقيّة، يعاني قَسْوة الحياة وعُنْفوانَها بَدَل أنْ يكون ذا سَعْي وقدرةٍ وإبداعٍ ونَفْعٍ وعَطاءٍ، يحقق قيمته الحقيقيّة في الاستخلافِ، ويؤدي الوظيفةِ المنسجمة مع فِطْرة الإنسان المؤهّل، الذي يُدْرك -على حدّ تعبير المؤلف- نوازعَ الإصلاح الروحيّة ونوازعَ الإفساد الطّينيّة، ونوازعَ العدل ونوازعَ الظّلم، ونوازعَ الخير ونوازعَ الشّر، دون أنْ يُكلَّف فوق وُسْعه وطاقته، قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ (البقرة: ٢٨٦)

هذان العاملان: الأَعْراب في العصر الأموي، وطُغْيان الثقافة الإغريقية في العصر العباسي -هما في رأي المؤلّف اللذان طَغَيا بِمرور الزّمن على أنوار الرؤية القرآنية الكونية وحَجَباها عن الواقع، وغدا القرآن الكريم في نَظَرِهِ مادّةً لِلتّبرك وطَلَبِ الأجر والثواب بالتّلاوة والحفظ، مع أنَّه الأساس في الرؤية الكونية الحضارية.

والملاحَظ أنّ المؤلّف عَوَّلَ على هذين العاملين كثيرًا، فَجَعَل نِهَاية عهد الراشدين زمنًا فاصلاً للرؤية الكونيّة القرآنيّة التي حَمَلها الأَصْحاب، ثُمّ تَشَوّهَت بتأثيرِ من القَبَليّة العِرْقيّة والشُّعوبيّة الاستبداديّة السياسيّة، فكانت النتيجةُ أَنْ تَراجَعَ فكر الأُمّة وانْحَسَرَ أَداؤُها الحضاري أمام ما واجهته من تَحَدّيات وتَطَوّرات.

[٧] المرجع السابق، ص٤١-٤٢.

وفي ظنّي أنّ ذلك إجحافٌ بحقّ تاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة التي بدأت ببزوغ فَجْر الدِّين الجديد في (مَكَّةَ)، ثُمّ تَقَدّمت بمرور الزمن حَتّى تَشَكّلت الدّولة في (المدينة). يقول المستشرق الرّوسي فاسيلي بارتولد (١٨٦٩-١٩٣٠): "نَشَأَت في العالم في القَرْن السّابع دَوْلَةٌ عظيمةٌ مِن شِبْه جزيرة العرب للمرّة الأُولى والأَخيرة في التاريخ، وبَدَأت حَرَكَةٌ جديدة."[٨] هذه الحركة الجديدة التي بَدَأت، إنّما نَمَت وتَصَاعدت مَعَ وُجود الدّولة وفي ظِلّ سيادتِها، وهي في العهدين النبويّ والرّاشديّ كانت أكثر قُرْبًا من القرآن الكريم وتوجيهات الرّسول صلّى الله عليه وسلّم الآنيّةِ والمباشرةِ.

لكن، ومع أنّ الأمويين أَحْكموا قبضتهم وجعلوا لدولتهم هَيْبة أُسطوريّة، إلاّ أنّ مظاهر دولة الإسلام ظلّت قائمة، وكانت عند الخلفاء خطًّا أَحْمرَ وفيهم بعض خشية يؤولون بِها في نِهاية الأمر إلى حيثيّات ومرجعيّات حقيقيّة؛ فظلّ الخلفاء قائمين -ولو بصورة جزئية- بأمر الدِّين، فنشروا لواء الإسلام في إفريقية، وفي أوروبّة عن طريق خلافتهم الثانية في الأندلس، وفي أَصْقاع أخرى نائية من آسية كالسّند، وتركستان، وجُرْجان، وطبرستان، وغيرها، إذْ "بلغت الإمبراطورية العربية أعظم اتساعها في خلافة الوليد وأخيه هشام."[٩] وكان لهذه الدولة "العربيّة الأعرابيّة" أَثَرٌ كبير في انتشار الإسلام في البلاد، ساعد على ذلك وَحْدةُ الدولة وعدمُ تَشَرْذُمها، وذكاءُ الخلفاء وحُريّتُهم وحُبُّهم للناس، فعبّدوا الطّريق لمن جاء بعدهم لإبداعِ حضارةٍ أفضلَ من الحضارات السّابقة عليهم، إنّها -كما أشار إليها المؤرّخ الفرنسيّ غوستاف لوبون (١٨٤١-١٩٣١) في كتابه "الإنسان والمجتمعات"- من الحضارات التي نرى الاطّلاع على تاريخها مفيدًا إلى الغاية وقد جهله الناس،[١٠] بما أَنْشؤوه من تلك المُدُنَ الزاهرة التي ظلّت ثمانية قرون مراكز للعلوم والآداب والفنون في آسية وإفريقية وأوروبا.

وأمّا العصر العباسي، فهو بحقّ العصرُ الذّهبي للحضارة، فمع أنّ نظام الحُكْم اختلف عنه في العصر الأموي؛ إذْ كان للأعاجم الداخلين في الإسلام شأنٌ في الحُكْم

[٨] بارتولد، فاسيلي. **تاريخ الحضارة العربيّة**، ترجمة حمزة طاهر، القاهرة: دار المعارف، ط٣، ١٣٧٢هـ، ص٦٢.

[٩] معروف، ناجي. **أصالة الحضارة العربيّة**، بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٥م، ص٢٣٥.

[١٠] المرجع السابق، ص٢٣٧.

عظيمٌ، كان للحركة العلميّة المصاحبة لهذا العصر آثارٌ جليلة في إبداع المسلمين وتَفَوّقهم وازدهارِ دولتِهم وبناءِ حضارتِهم، أَثْرَت العلوم، وانفتحتْ على ثقافات العالم القديم، وأَثَّرَت كلّ تأثير في البلاد الجديدة المفتوحة؛ فكان لهذه الحضارة الإسلامية –كما يقول لوبون– "تأثير عظيم في العالم"، ورأى أنّ الحضارة الحديثة مَدينة للعرب وَحْدَهم في هذا التأثير، وأنّ الشعوب التي اعتنقت دِين الإسلام لا تُشاركهم فيه، لأنّهم في رأيه "فتحوا لأوروبّا ما كانت تَجْهله من عالَم المعارف العلميّة، والأدبيّة، والفلسفيّة بتأثيرهم الثّقافي، فكانوا مُمدِّنين لنا وأئمّةً لنا ستّة قرونٍ."[١١]

ولعلّ ما يرمي إليه المؤلِّف في هذا الكتاب النفيس، إنّما ينطبق على واقع المسلمين اليوم بشكل كبير؛ ذلك أنّهم قَصّروا بل تقاصروا عن القيام بواجبهم في استئناف مَسيرتِهم الحضارية، وإنّ غياب دولةٍ لهم قائمةٍ مَحُوطةٍ بِمَرجعيّات فكريّةٍ يقوم عليها علماءُ كبارٌ، له أثرٌ كبير في غيابِهم بل تَغْييبهم عن دورهم الحضاري الفريد.

والمؤلِّف إِذْ يُحَمّل الزّمن الضّارب في أعماق التاريخ من عُمُر هذه الأمة المجيدة وِزْرَ غِياب الرؤية الكونية، يَنْطلق من غَيْرة حَميدة على جُمْلة المبادئ والمفاهيم والقيم التي غُيِّبت اليوم في عالم الماديّة والجدليّة التاريخيّة، فضلاً عن فضاءات العَوْلَمة الجديدة. فالرؤيةَ الكونيّةَ القرآنية الحضارية هي رؤية تَوْحيديّةٌ غائيّةٌ أَخْلاقيّةٌ إِعْماريَّةٌ تُعَبّر عن الفطرة الإنسانيّة السّويّة، غايتها تحقيق الاستخلاف؛ وهو كما يراه المؤلِّف "الوعي والحضور الإِعْمَاري الخَيِّر في الزّمان والمكان،"[١٢] بِمَعنى أنّها رؤية تَعْمد إلى تَحْقيق الذات لا إلى إلغائها من خلال ابتعاثِ الخيريّة الكامنة فيها؛ فالإنسان الذي تَصِحّ رؤيتُه الكونية القرآنية هو الخَيِّرُ في جوهره، يُحِبّ الله ورسوله ويَكْره الشّرّ والشّيطان، ويتواصل مع الحق سبحانه وتعالى بالذِّكر والدُّعاء الذي يُحَقّق به الإنسان ذاته. ويرى المؤلِّف أنّ هذا الحُبَّ والذِّكر والتّواصل لا يكون حقيقيًّا إذا لَمْ يُؤْتِ ثَمرَتَه في قيام الإنسان بِمُهمّة الاستخلاف في التّسْخير والإِعْمار للأرض، بالعلم والعمل الصالح

[١١] لوبون، غوستاف. **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٥م، ٦٩٠.

[١٢] أبو سليمان. الرُّؤْيَة الكَوْنيَّة الحَضَاريَّة القُرْآنيَّة– المُنْطَلَق الأَسَاس للإِصْلاح الإِنْسانيّ، مرجع سابق، ص٥٥.

والإتقان والإبْداع، وذلك هو جوهر الرؤية الكونيّة مع ما يصاحبها من انعكاسات خطيرة في مُخْتلف جوانب الحياة المعاصرة، نتيجةَ هَجْمَة الفكر الماديّ بأبعاده الماديّة غَيْرِ الأَخْلاقيّة.

من هنا، طَرَحَ المؤلِّف موضوع "الأنا والآخر" في الرؤية الكونية القرآنية، وهما عنده دوائرُ متداخلةٌ في نسيجٍ حضاريّ تَوحيديّ إعماريّ بديع، يقوم عنده على "الغائيَّة والتناسُقِ والتفاعل الإِعْماريّ البَنَّاء الذي يَتحَقَّق به في مُجْتمع الإنسان معنى الفرد، ومعنى الجماعة، ومعنى الإنسانيّة في بيئةٍ حضاريَّة من قيم العَدْل والتَّسامح والإخَاء والسَّلام؛"[١٣] ذلك أنّ دولة الحق والعدالة والإنسانيّة لا تقوم على التمايز في اللّون والعِرْق واللّسان، وإنّ "المُؤَاخَاة" في صَدْر الدَّولة الأوّل بين المهاجرين والأنصار كانت عاملاً قويًّا من عوامل بناء الدَّولة الناهضة الحيَّة، لذلك فإنّ ما حاول المؤلِّف إثْباتَه في العلاقة بين "الأنا والآخر" من الوَحْدةِ الإنسانيّة، والتنوّعِ بين الشُّعوب والقبائل، والتَّكاملِ في التقوى مع اختلاف الأَلْوان والألسنة، والتّسْخيرِ من اختلاف القُدُرات وتَمَايزها للتعاون والتكامل لا للتّسلط والاستعلاء، والدَّعوةِ إلى الخير بالحُسْنى والتعاونِ على البرِّ والتقوى، والعَدْلِ عند وقوع العَدَاء والتنافر دَفْعًا للظلم والعدوان هو ما يُميّز الرؤية الكونية القرآنية في إطارها التوحيديّ التكامليّ عن الرؤية المادية العُدوانية الحيوانية، في أنّها "تَجْعل من الاختلاف والتمايز الإنسانيّ رؤيةً تَوْحيديّةً تَكَامُليّة"، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥)

والمشكلة اليوم أنّ المسلمين أبعدُ ما يكونون عن منهاجهم وعقيدتِهم، وإنَّ هذا الإنكار والجحود منهم أَبْعَدَهم عن كثير الصفات الجوهريّة التي من خلالها -بعد تَمَثُّل إسْلامهم فكرًا وسُلوكًا- يسودون الأمم، ولكانوا -كما يقول المؤلِّف- أُمَّةً واحدةً ويدًا واحدةً وكيانًا واحدًا، وسبيلاً مستقيمًا عزيزًا واحدًا.

---

[١٣] المرجع السابق، ص٧١.

وعليه، فإنّ الصفات التي يَتَمتّع بها الإنسان من صِدْق وكَــرَم ووفــاء وعَــدْلٍ وتَوَاضُعٍ وإِحْسانٍ وإصلاحٍ، هي المحرِّكُ الفعلي الذي يجعله مُسْــتَخلفًا في الأرض، وإذا كان غيرَ قادرٍ على الاتِّصَاف بِها "فَلْيَعْلَمْ أَنَّه ليس أَهْلاً لأداء أَمَانَةِ الاسْتِخْلاف."[١٤]

لذلك، عَقَدَ المؤلِّف موضوعًا آخر تحت عنوان "الرؤية الكونية هي رؤية السَّــلام العالميّ؛" ذلك أنَّ الخطاب القرآني تَجَاوز حدودَ القبيلةِ والقوميّة إلى الإنسان والعالمين، ضاربًا بالنــزعات العنصريّة والقبليّة والقوميّة والشَّعوذة والخرافة وغيرها من مبــادئ الدُّونيَّة الماديَّة وقِيَمِها عُرْض الحائط. غير أنّ ما تعاني منه البشريّة اليوم من صراعٍ وظُلْمٍ وقَسْوةٍ واستعلاءٍ وتَسَلّطٍ وعُدْوانٍ، إنّما هو نتاج الرّؤية الكونيّة الطِّينيَّة بعد أنْ تَخلّت عن الأديان؛ فبرزَ قَانُونُ الغَابِ، فَأَنْتجَ العُنْصريّاتِ والقوميَّاتِ والطَّبقاتِ الاجتماعيَّــةَ، والمسلمون سادرون في غَيِّهم حائرون مُغَيَّبون، ولو أنّهم أدركوا أَبعادَ رؤية إســلامهم الكونيةِ القرآنيةِ، والتزموها في فَهْم أنفسهم ومُجْتمعاتِهِم "لكان أَثَرُ الإســلام ورؤيــةُ الإسلام على الأمَّة والإنسانيَّة مضاعفًا، ولَمَا انتهى بِهِم الحال إلى ما هم عليه اليوم من تَهْميشٍ وضَعْفٍ، ولاهتدى بِهَدْي الإسلام مَزيدٌ من بَني البشر."[١٥]

ولعل هذا يؤكِّد ما كنتُ أَشرتُ إليه سابقًا من أنَّ المؤلِّف أَسْقَطَ تَخلُّــف الأمَّــةِ الحضاريَّ عند أَعْتَابِ الدَّولة الأمويَّة والاهتمامِ بالثقافات الأخرى في العصر العباسيّ، وذلك في ظني جُزْءٌ من المشكلة ليس المشكلةَ كُلَّهَا، لأنَّ دولة الإسلام كانت قائمــةً وإِنْ كانت الرؤية الكونيَّة القرآنيَّة في تطبيقاتِها وأبعادِها مُبْتَسَرةً.

أَمَّا اليوم، فإنَّ ما يعاني منه المسلمون هو غِيابُ وليِّ الأمر والدَّولــةِ والمَرْجعيَّــاتِ الدِّينيَّةِ كلّها، ولذلك آثارٌ سلبية مَقيتةٌ، في مُقَدِّمتها أَنْ تَتَخَلَّى الأمَّة بمَجْمُوعها عــن الاحتكام إلى شَرْعِ الله، وهي من كُبْرى الجرائم في تاريخ البشريَّة إنْ لم تكن أَكْبَرَهــا على الإطلاق، لأنَّ رسالةَ الإسلام رسالةُ نظامٍ عالميٍّ يَقوم على مبادئِ العَدْلِ والشُّورى والإِحْسانِ والتَّنَوُّعِ والتَّراحُمِ والأَخْلاقيَّة، لا القَهْرِ والتَّظالُمِ والقُوَّةِ والمصلحةِ والتَّسَلُّطِ، التي يَقوم عليها نِظَامُ العَوْلَمَة الأُحَادِيّ الذي يسود عالم اليوم.

[١٤] المرجع السابق، ص٨٤.

[١٥] المرجع السابق، ص٩٩.

وبالرّغم من ابتعاد المسلمين عن تَمَثّل الرؤية الكونية الحضارية في حياتِهم؛ قِيَمًا ومفاهيمَ ومَبادئَ، فإنّ ذلك لا يعني أَنّها رؤيةٌ غيرُ صالحةٍ للإنسانيَّة، بدليلِ انسلاخِ أَبْنائها عن تَمَثُّلها في واقعهم مَنْهَجَ حَيَاةٍ؛ لأنَّ ثَمَّةَ فَرْقًا بين مبادئِ الرؤية القائمةِ على الهدايةِ والتَّرْشيد واسْتِنْهاض قُوَى الخير والإصلاح، وتَمَثُّل السلوك البشري لها. وإذا كانت الأمّة انتكست اليوم في تَمَثُّلها، فإنَّ العهد النبويّ كان "المثال الواقعيّ الذي حَقَّقَ هذه الرّؤيةَ القرآنيّة ومُتَطَلَّباتِها الواقعيَّةَ في الزَّمان والمكان."[١٦]

وعليه، فإنّ هذه الرّؤية لم تكن نظريّةً فلسفيّة خياليَّة، غير قابلةٍ للتحقُّق في الواقع الإنسانيّ، بل كانت وسوف تبقى إنِ التفت المسلمون إليها "واقعيَّةً حياتيَّةً وحَيَّة متوازنةً سَوِيَّة" على حد تعبير المؤلِّف. والرّؤية القرآنيَّة الكونيَّة تقوم على جُمْلَة من المبادئ التي تمثل أَدَوات "تَضْبط منهجَ فِكْرِ الأمَّة المسلمة والإنسانَ المسلمَ وتُحَوِّلُه إلى واقعٍ حَيٍّ ملموس، يُرَشِّد مسيرة المجتمع الحضاريَّةَ ويَمُدُّها بالقوَّة والإرادة والطَّاقة التي تُمَكِّنها من الفاعليَّة والأداء والنُّمو والتَّطَوُّر، وتُمَكِّنُها من تَحْقيق مَقَاصدِها وإِبْدَاع وسائِلِها،"[١٧] وجَعَلَ على رَأْسِ هذه المبادئ مبدأ "التَّوحيد" أَسَاسًا لِمَا عداه من المبادئ الأخرى، لأَنَّه -على حَدِّ تعبيره- "المبدأ الفطريّ القرآنيّ الأساس الذي يَنْبثق منه مَفْهوم نظام الوجود."

إن المبادئ الأربعة عشر التي حددها المؤلف لبناء الرؤية الكونية[١٨] كلُّها وثيق الصلة بمشروع "الإِصْلاح والإِعْمار." لأنّ الرؤيَةَ القرآنيَّة هي أساسٌ ومنطلق ودافع له، بل إنَّ قَصْدَ الإِصْلاح والإعمار أَنَّه "مبدأٌ وغايةٌ فِطْريَّة سَوِيَّة لا تَنْفَصم عن الرُّؤية الحضاريَّة لِمَشْروع الوجود الإنساني على الأرض،"[١٩] وإنَّ الالتزام بهَذا القَصْد في الحياة إِنّما هو تَحْقيق للذّات الإنسانيَّة، وتلك دعوةُ القُرْآنِ والنَّهْجِ النَّبويّ الإنسانَ إلى

[١٦] المرجع السابق، ص١٠٩.

[١٧] المرجع السابق، ص١١٥.

[١٨] هذه المبادئ هي: التوحيد، الاستخلاف، العدل والاعتدال، الحرية، المسؤولية، الغائية، الأخلاقية، الشورى، الاتساق بين الحرية والشورى، الشمولية العلمية السننية، العالمية، السلام، الإصلاح والإعمار، الجمال.

[١٩] المرجع السابق، ص١٧٠.

التَّسخير والإِعْمار لأنَّه مُسْتَخْلَف؛ والاستخلافُ القائم على التوحيد يقتضي ذلك. وبهذه العناصر تتضح أَبْعاد الحياة الإنسانيَّة السَّويَّة ويتضح مَعْنى وجودِها، وما عداه من جُحُودٍ ونُكْرانٍ وقَسْوَةٍ وظُلْمٍ وسَعْيٍ إلى الإِفْسَاد في الأرض لا إصلاحها، تَدْميرٌ لِذَاتِ الإِنْسَان وإِلْغَاءٌ لغائِيَّته الحقيقيَّةِ على الأرض.

ولعلّ المسلمين اليوم يعيشون بين مفترقين: أحدهما سَالِفٍ تَمَثَّلت فيه الرُّؤية القرآنيَّة مثالاً رائعًا ونَمُوذجًا فَريدًا، وتَرَكَت آثارًا حَيَّة في مسيرة الأمَّة من إِنْتَاجِ وإِبْدَاعِ حَضَارةٍ إنسانيَّة أَخْلاقيَّة غيرِ مَسْبوقة؛ والآخَرُ حادثٌ تُعاني فيه الإنسانيَّة مَوَاجعَ من براثِنِ الحضارةِ الماديَّة الحديثة، التي نُحِّيَ فيها الدِّين جانبًا مُحَرَّفًا مهمَّشًا، فَغَرِقَت في وَحَل الطِّينيَّة ومَزَالق الغاب؛ إذ غَلَبَت فيها نزعةُ الافتراس والقوَّةُ والتَّسَلُّطُ على فَضيلةِ الأخلاق التي يَحْيا الإنسان ويَتَفرَّد بِهَا من بين الخلائق كلِّها، فغدا فيها كالأنعام بل أَضَلُّ سبيلاً.

وعليه، فإنَّ ما يَلْحظه الإنسان من بَريقِ الحضارة اليوم ولَمَعَانها تَلَبَّسَ بِهَا وصار عَلَمًا عليها، إنَّما هو في الحقيقة تَجْسيدٌ لقانون الغاب الذي يَسُود فيه قانون "الحقّ للقوَّة"، ولا مَجَال فيه "لِقَصْد الحقِّ والعدل أَوِ الإِنْصَاف في التعامل مع الآخر."[٢٠]

وإذا أرادت الإنسانيَّة التخلُّص اليوم من وَهْدَة هذه الماديَّة -على رُغْم ما حَقَّقَته من إِبْدَاعَاتِ التَّسخير الماديِّ، وما قَدَّمَته للإنسانيَّة الحائرةِ من مُخْترعات تَخْدم حاجاتِ الإنسان الآنيَّةَ والبعيدةَ- فعليها البحث عن منهجٍ آخَرَ يَتَوخَّى الأخلاقَ والمُثُل العليا التي تُحَصِّن المُجْتمعاتِ من آفاتِ شَريعةِ الغاب ونزعاتِهِ الطِّينيَّةِ الحيوانيَّةِ المُتَحَلِّلة من كلِّ خُلُقٍ ودِينٍ؛ إنَّه منهج "الرُّوحيَّة" النَّقيض اللدود للماديَّة، ذلك أنَّه "التزامٌ وتَعْبير عن العدل والتسامح والغائيَّة الأَخْلاقيَّة،"[٢١] يَتَخَلَّص به الإنسان مِمَّا يعانيه في ظل الحضارة الماديَّة الحديثة، من أمراضٍ وآفاتٍ روحيَّةٍ واجتماعيَّةٍ خطيرةٍ وأَسْئلةٍ لِمَسائلَ في الوجود عَالِقَةٍ.

---

[٢٠] المرجع السابق، ص١٨٠.

[٢١] المرجع السابق، ص١٨١.

بيد أنّ المشكلة لا تَكْمن في هذا المنهج الروحيِّ نفسه بل في القائمين عليه، وإنَّ المرء ليتساءل: إلى متى تَنْتَظر الأمم التي سبقت المسلمين اليوم إلى عَالَمِ الاكْتِشَاف والاخْتِرَاع، حَتَّى يفيق المسلمون من غَفْلتهم ويُحْسنوا فَهْمَ منهجهم؟!

أعتقد أنَّ الأمر الذي لَمْ يُشِر إليه المؤلِّف عند حديثه عن الإِعْمار والإِصْلاح يَكْمُن في "الدَّولة"، لأنَّها المُحَرِّض والمُحَرِّك والدَّاعي إلى ذلك كُلِّه، وفي عالَمنا الإسلاميِّ مُحَاولات للإعمار والإصلاح بدرجات متفاوتة من النجاح، لكنَّها قائمةٌ على مستوى الدَّولة نفسِها لا الأمَّة بمَجموعها، وتكاد تكون مُحاولة "مُحَمَّد علي" في مصر على رأسها لو امتدَّت غير أنَّها وُئدت في مهدها، بل زد على ذلك أنّ مصر قبل الحرب العالميَّة الثانية كانت متفوِّقة على دولةٍ مثل اليابان، التي كانت حتّى نهاية القَرْن التاسعَ عَشَرَ أُمَّة حائرةً تَتَلَمَّس طريقَها، حتّى إنّهم أَرْسلوا بعثةً إلى مصر في عهد الخديوي إسماعيل (١٨٣٠-١٨٩٥) يبحثون أسبابَ تَقَدُّم مصر عليهم.[٢٢] لكن، أين مصر اليوم من اليابان؟! ما فائدةُ أَنْ يوجد الإصلاحيُّون والمفكِّرون من غيرِ دولةٍ ترعاهم وتدعمهم؟! لقد وَقَفَت اليابان من الحضارة الغربيَّة مَوْقف التِّلميذِ في الوقت الذي وَقَفْنا فيه نَحْن العربَ مَوْقف الزَّبُون على حَدِّ تعبير الأستاذ مالكِ بْنِ نَبيّ.

والمعادلةُ بيننا وبينهم واضحة؛ ففي الوقت الذي تَفْتقر فيه اليابانُ إلى الموارد الطبيعيَّة أنعم الله على العرب بكثير منها، وفي الوقت الذي اغتنت فيه اليابان بإنسانها المشغولِ بقضيَّة وَطَنه افْتَقَرنا إلى إنساننا العربيّ، الذي هَجَّرَتْه دُوَلُنا قَسْرًا إلى الغرب فغدا هناك إنسانًا ناشطاً في الإِصْلاح والإِعْمار والإِبْداع، حيث التُّرْبَةَ الخِصْبة فتَفَانَى في الإِنْتاج والإِبْداع.

وفي عالم المسلمين نَماذجُ أخرى حَيَّة ناهضَةٌ، تَسْعى فيها الدُّول أَنْ تُثْبت لها خطوطًا على خريطة العالم الحضاريّة، منها "ماليزيا" التي تَحَدَّت الصِّعاب ومُحَاولات الإِجْهاض، هي أَرْخَبيل من الجزر المُمْتدة في جنوب شرق آسية، أَبَى القائمون عليها إِلاَّ أَنْ يَكُونوا فَكَانوا، وشَهِدَت في السَّنوات الأخيرة نَهْضةً اقتصاديَّةً واسعةً جَعَلَتْها

[٢٢] سفر، محمود محمد. **دراسة في البناء الحضاري**، قطر: مركز المعلومات والبحوث، ص٨٧.

أَسْرعَ دُول المَنْطقة نُمُوًّا، وشَهدت –والمؤلِّف كان مؤسِّسًا ومديرًا للجامعة الإسلاميّة فيها– نَهْضَةً تعليميَّة قائمة على أساسٍ فلسفةٍ تربويَّةٍ إِسْلاميَّةٍ، أَعَادوا صياغَةَ النِّظام التعليميِّ كُلِّه على أساسها.

كُلُّ ذلك لأنّ القائمين على الدَّولة، أرادوا التّخلُّصَ من التّبعيَّة للغرب ومُحَاولة بناء أُسس جديدة لدولةٍ حديثةٍ عَصْريَّةٍ فنجحوا، وحَقَّقت ماليزيا قَفَزَاتٍ كبيرةً في مَجَالات التنمية الاقتصاديَّةِ والاجتماعيَّةِ. وإنّ مقارنةً بين ما وَصَلت إليه ماليزيا وما عليه واقعُ العَرَب مِن تَشَرذم وانسياق، لَيَدْعو إلى الحُرْقة والمرارة؛ إنَّ ماليزيا أمَّةٌ واحدةٌ في الوقت الذي تَشَرْذَم فيه العَرَب أَخْلاطًا كُلُّ حِزْب بِمَا لديهم فَرِحون.

من هنا، فإنّ ما يركّز عليه المؤلِّف من دَوْر الإصلاحيين والمفكّرين في تغيير المعادلة لا بد له من مجتمع ينفعل به؛ لأنَّه إذا كان المطلوبُ هو استعادَةَ عافيةِ الأمَّةِ واستردادَ رُؤْيتِها وغائيَّتِها وأَخْلاقِيَّتِها ودافِعِيَّتِها على ما يَرَى، فإنَّ هذه المُهِمَّة الكبيرة الجليلة مَهْما نَظَّر لَهَا الإصلاحيُّون، لن تكون أمرًا واقعًا من غير مجتمع يصوغ الواقع ويتمثل رؤيته، وإنَّ الله لَيَزَع بالسُّلطان ما لا يَزَع بالقرآن!!

ومع ذلك، فقد راح المؤلِّف يُجَلِّي الصُّورة أكثر وضوحًا "حتّى لا نَحْرث في البحر"[٢٣] على حَدِّ قَوْله، ورَأَى أَنّ الإصلاحيين يَجب أَنْ يبدؤوا بمُراجعة التّراث وفَحْصه ونَقْده للشُّروع ببَذْر مَشْروعهم الإعْماريِّ برُؤيةٍ كلِّيَّةٍ شاملة تَعْتمد المَرْجعيَّة القرآنيَّةَ والحِكْمةَ النَّبويَّةَ، ليخلو –مشروعُهُم– من التّشوّهات والانحرافات.

ثُمّ رَكّز على أهميَّة دَوْر الأسرة التربويّ في مواجهة الإعْلام السّلبي، لأنَّ المؤسَّسَةَ التعليميَّةَ –في نَظَرِهِ– متخلِّفةٌ في القيام بدورها الحضاريِّ الإعْماريّ، والتّعليمُ فيها مُسْتهلَك وكُلُّه هَذَرٌ ولَغَطٌ، "وتَسْلية مَجَالس"، و"عنتريَّاتُ مَنَابرَ"، و"ألفاظ هامدة جامدة"، والكثيرُ منها على حَدِّ تَعْبيره "جَعْجَعْاتٌ لَفْظيَّة إنْشائيَّة خَطَابيَّةٌ،"[٢٤] الْمَعْنيُّ بإِصْلاحها وإِعَادةِ بِنَاء المُعَلِّمين هُم المُفَكِّرون والتَّربويُّون والإِصْلاحيُّون، لإقالةِ الأمَّة من

[٢٣] أبو سليمان. الرُّؤْيَة الكَوْنيَّة الحَضَاريَّة القُرْآنيَّة– المُنْطَلَق الأَسَاس للإِصْلاح الإِنْسانيّ، مرجع سابق، ص١٨٧.
[٢٤] المرجع السابق، ص١٩١.

عَثْرَتِها والخروجِ بِهَا من الظَّلاميَّة والانكسارِ والتَّبعيَّة؛ لأنَّ هذه الوسائل من فِكْرٍ وتَرْبيةٍ وتَعْليمٍ إذا صَلَحَت برُؤيةٍ حضاريَّةٍ قرآنيَّة، "صَلَحَت الأمَّةُ المسلمة، وصَلَح أفرادُها، وصَلَح نظامُها الاجتماعيُّ، وصَلَحَت مؤسَّسَاتُها، وصَلَحَت معها الحضارةُ الإنسانيَّة."[٢٥]

أَمَّا الموضوع الذي أَشَرتُ إليه في مَطْلع هذا المقال، ويُشكِّل هدفًا رئيسًا للمؤلِّف من هذا الكتاب، الذي حاول فيه تَشْكيل رُؤيةٍ حضاريَّة خاليةٍ من التشوُّهات والانحرافات، لإعادةِ بناءِ العقل المسلم وإعادةِ صياغتِهِ وَفْق هذه الرُّؤية القرآنيّة، فيتمثّل في كيفيّة بناءِ العلومِ الاجتماعيَّةِ الإسلاميَّةِ لتحقيق الرُّؤيةِ الإسلاميَّةِ؛ إذ إنّ هذه الرُّؤيةَ لا تَتَحَقَّق إلا ببنَائِها، لأنَّ قضيَّة "إِسْلاميَّة المَعْرفة" هي قضيَّةُ العلوم الاجتماعيَّةِ الإِسْلاميَّة؛ فَهُمَا -كما يقول المؤلِّف- وَجْهانِ لِعُملة واحدة؛ إِذْ إنَّ التوقُّفَ في العلوم الاجتماعيَّةِ والإنسانيَّةِ أَخْطَرُ من التوقُّفِ في العلوم الماديَّةِ التَّجْريبيَّةِ، ذلك أنَّ التّخَلُّفَ فيها -أَيِ العلومِ الاجتماعيَّةِ والإِنْسانيَّةِ- "هُو سَبَب التّخلُّف في العلوم الماديَّة" على حَدّ تعبير الأستاذ عُمر عُبَيْد حسنة في تقديمه لكتاب "الصِّياغة الإِسْلاميَّة لعلم الاجتماع."[٢٦]

من هنا، تَبْرز أهميَّة هذه العلومِ في بناءِ المُجْتمعات الحيَّة وإِصْلاحِها. وتَختلف مهمَّتُها عن مُهمَّة "الفِقْه" و"القَانُون" و"الأَحْكَام" و"الفَتَاوَى"؛ إِذْ تَكْمن في "دراسة المُجْتمع على ضوء رُؤيته الحضاريَّة رُوحيَّةً كانت أَوْ ماديَّةً، وواقعِ طَبَائع فِطْرتِهِ الإنسانيَّةِ، في حدود إمكاناتِه البشريَّة والماديَّة، وتَحَدِّياتِ عَصْره الحضَاريَّة،"[٢٧] أي في الوقت الذي تكون فيه مهمَّة الفقه والقانون شَكْليَّةً، تَكُون مُهمَّة العلوم الاجتماعيَّةِ فِكْريَّةً. وعليه، فإنَّهما يتكاملان تَكَامل أَجْنحة الطائرِ في خدمة مَسِيرة الأمَّة وبناءِ كيانِها، على حَدّ تعبير المؤلِّف.

---

[٢٥] المرجع السابق، ص١٩٢.

[٢٦] المطيري، منصور. **الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: قطر، سلسلة كتاب الأمة، العدد ٣٣، ص١٣.

[٢٧] أبو سليمان. الرُّؤْيَة الكَوْنيَّة الحَضَاريَّة القُرْآنيَّة– المُنْطَلَق الأَسَاس للإِصْلاح الإِنْسانِيّ، مرجع سابق، ص٩٨.

لكن، هل ثَمَّةَ تلاق بين العلوم الاجتماعيَّة الغربيَّة وقضيَّة العلوم الاجتماعيَّة الإسلاميَّة، وخاصَّة أنَّ مُحْتواها الفكريَّ يتمثل بجَانب وَضْعيّ يتمثل في الرُّؤية الكونيَّة الماديَّة، وآخَرَ موضوعيّ يتمثل في دراسة الفِطْرةِ والطَّبائعِ البشريَّة؟

لعلّ المشكلة تَكْمن في أنَّ علومهم الاجتماعيَّةَ -بِصَرْف النَّظَر عن أَخْذِ الغَرْب مَنْهَجَ السُّنَنيَّة والعِلْميَّة عن الإسلام- ظَلَّت امتدادًا لدراسات السُّنن والنواميس الكونيَّة في عالم المادَّةِ، وما زال العالَم يعاني إلى اليوم من ازدواجيَّةِ قِيَمِها ومَعَاييرها "التي أَفْرَزَت وَيْلات الاستعمارِ والظُّلم والعُدْوانِ والتّفَنُّنِ في إِبْداعِ وَسَائلِ الحَرْبِ والدَّمَار."[٢٨] وما حَدَثَ هو أنَّ المسلمين -الذين هُم أَوْلى الناس في دراسة الفِطْرة الإنسانيَّة والسُّننِ والنَّواميسِ الإلهِيَّة في إِبْداع الخَلْق- دَالَت دَوْلَتُهم، وأُصيبت الأمَّة الإسلاميَّةُ بِعَثَرَاتٍ مُبَكّرة في تاريخها، فَآلَتِ الدُّوَلُ إلى مَنَاهجَ في الدِّراسات جديدةٍ، عَانَت فيها الإنسانيَّةُ من وَيْلات ماحِقَات، بعدما تَحَقَّق في ظل الرُّؤية القرآنيَّة وهِدَاية الوحي والإسلام، العَدْلُ والإخاءُ والتسامُحُ والحريَّةُ والأمنُ والسَّلام. لذلك، فإنّ المؤلِّف يَدْعو طلبة العلم والباحثين والدارسين المسلمين إلى استئنافِ النَّظَر في تَفْعيل الرُّؤية الإسلاميَّةِ الكونيَّةِ والوَحْي الإِسْلاميِّ، اللذين يُعَبِّران عن الفِطْرة الإنسانيَّة السَّويَّة ويُرَشِّدانِها من خلال:

- التَّخلُّص من داء التقليد والتبعيَّة والتسلُّح بالعقليَّة النَّاقدة المُبْدعة.
- ومَعْرفة الرُّؤية الكونيَّة القرآنيَّة الحضاريَّة وقيمها ومفاهيمها ومبادئها.
- ومَعْرفة المنهجِ العِلْميّ لدراسة الفِطرات الإنسانيَّة والكونيَّة.
- والاستفادة من التّراث الإسلاميّ، وإِنْجَازات العلم المعاصر الموضوعيَّة.

ويرى أنّ إسلاميَّة المعرفة وبناءَ العلوم الاجتماعيَّة الاسلاميَّة على أساس الرُّؤية الكونيَّة القرآنيَّة الحضاريَّة، لا تَخْتلف عَمّا يقوم به الدارسون كافة في مَجَالات العلوم

[٢٨] المرجع السابق، ص٢٠٠.

المختلفة. لذلك فإنَّ المطلوب عنده من الباحثين والمفكِّرين والإصلاحيِّين، أَنْ تُجَلَّى هذه الرُّؤيةُ الكونيَّةُ، وأَنْ يُعادَ النَّظَرَ في مفاهيمنا وأساليبنا التربويَّةِ والتّعليميَّةِ، في ضوئها، وأَنْ نُؤَهِّل أَنْفسنا بِمُسْتلزمات البحث العلميّ الإسلاميّ الاجتماعيّ الكونيِّ، لِيُصْبح المسلمون اليوم أَهْلاً للعطاءِ والإِبْداعِ والمنافسةِ والرِّيادةِ الحضاريَّةِ.

وبعدُ، فإنّ هذا الكتاب ثَمَرةٌ علميَّة ناضجة في مَجَال المنهجيَّة الإسلاميَّة ومصادِرِها العلميَّة، تَغَيَّا فيه المؤلِّفُ تَنْويرَ الباحثين على قضيَّة مهمَّة من قضايا البحث العلميِّ، تُعيد صِلَةَ الأمّة بِرُؤْيَتِها الحضاريَّةِ، القائمةِ على الرُّؤْية القرآنيَّةِ والهدي النّبويّ، للإسهام في بناء الحضارة الحديثة وترشيدها.